

قراءة في كتاب لمجموعة من الباحثين

"الدين في التصوّرات الإسلاميّة والمسيحيّة"

المهندسة ربما فخري

الكلمات المفتاحية: الدين، الأخلاق، القيم، الله، الإسلام، المسيحيّة، الإنسان، الشريعة.

المقدّمة

يعتبر البحث في موضوع الدين وعلاقته بالحياة، بالفرد والمجتمع، من أهم الموضوعات وأكثرها دقة وحساسية، وجمالاً، سيما إذا كان الباحث مؤمناً بالله وبرسالته وشرعه، فيصير الحديث عن الدين حديث عن مفردات الحب وسبله ولغة الخطاب مع المعشوق. من جهة أخرى، إن المتدين الذي يفترض أنه مظهر لتجلي صفات الله من رحمة وحب وجود وغيرها من الكمالات، (بمستويات مختلفة) يشاق دائماً للبحث بموضوع الدين ومتعلقاته من باب رغبته بمشاركة من يحب وبمشاركة الناس جميعاً هذا الخير الكثير الذي يراه في علاقته مع ربه والآثار التي تتركها هذه العلاقة في الوجود كله. ولعله من هذا الباب يمكننا فهم الألم الذي كان يعتصر قلب رسول الله محمد صلّى الله عليه وعلى آله عندما كان يرد كثير من الناس دعوته صلّى الله عليه وعلى آله بالرفض والجحود، فخاطبه الله تعالى بقوله: {طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى} ¹،

قبل الدخول بالقراءة، لا بد لي من الإشارة والتنويه بالأمر التالية:

1. لقد وجدت في قراءتي واطّلاعي على هذا الكتاب متعة فكرية وفائدة كبيرة نظراً لغنى وتخصّص وأهمية الأبحاث

الموجودة فيه.

2. أنا لست متخصصة في علم الفلسفة أو الإلهيات أو في العلوم الدينية، سواء أكانت إسلامية أم مسيحية، بل أنا

باحثة في الشؤون السياسية، أعمل في مجال السياسة منذ سنوات، لكني عملت طيلة 12 سنة تقريباً في الشأن

الاجتماعي، وكما يقولون في لغة التنظيم، على الأرض ومع الناس.

وأعتبر أن من أهم واجباتي الدينية والأخلاقية والسياسية: خدمة الناس وخدمة المجتمع وحمائيته من المشاكل الطبيعية

الداخلية التي يمكن أن تنشأ في أي مجتمع، وكذلك من المؤامرات التي تحاك ضده لغايات سياسية وأمنية واستعمارية.

¹ سورة طه، الآيتان 1 و2.

3. لما كان هذا الموضوع هو القضية التي أحملها وأحمل همّها، فإنني أعتبر أن الأبحاث الموجودة في هذا الكتاب قدّمت وساهمت مساهمة حقيقية وأساسية في مسار النهوض بالمجتمع وحمائته وتطويره وإيصاله إلى كماله. لماذا؟ لأنه، وببساطة لو نظّمت جهة ما مؤتمراً أو حلقات دراسية وبحثية للبحث بوضع مجتمعنا: مواطن ضعفه، مواطن قوته... لوجدنا ان إحدى أهم المشاكل التي يعاني منها المجتمع اللبناني هي قلة الدين وابتعاد الناس، وخاصة الأجيال الناشئة عن الدين. بالتالي، فإن ما قدمه السادة الباحثون كان جزءاً نظرياً وضرورياً لأي دراسة مطلوبة لإيجاد الحلّ لبعض مشاكل المجتمع.

من الموضوعات التي لفتت انتباهي في الأبحاث المقدّمة: لقد تناولت الأبحاث المطروحة جملة عناوين مرتبطة بالدين، لجهة تعريفه وتحديد ماهيته، وظائفه، والتحديات التي يواجهها. كما بحثت في علاقة الدين بنظام القيم وبالشرعية وبالزمن وتطوره. وقد عرض بعض الباحثين للمناهج الأخلاقية المطروحة علمياً، سواء من علماء الدين أو الفلاسفة (المتدينين أو العلمانيين أو حتى الملحدّين)، وظهر في معرض بحثهم تأييدهم لاعتماد منهج دون الآخر.

1. في تعريف الدين وتحديد ماهيته: بعد الاطلاع على الأبحاث المقدّمة، لاحظت أن التقارب في مفهوم الدين بين المسيحية والإسلام إنما هو بنظرة كليهما إلى هدف الإنسان من وجوده. ففي الإسلام يتطلع الإنسان إلى الكمال وإلى السعادة الأخروية. وفي المسيحية يتطلع إلى الخلاص الذي هو في المفهوم المسيحي (بحسب الدكتور جورج صبرا في الصفحة 25) "استعادة للعلاقة الصحيحة بين الله والإنسان".

أما الاختلاف بينهما فيعود إلى رؤية كل منهما لحقيقة الخلاص وأساليبه، أو لحقيقة السعادة، الهدف التي خلق الإنسان لأجل تحقيقه، ولسبل تحقيق تلك السعادة.

فسماحة الشيخ حسن بدران في بحثه نقل تعريف العلامة الطببائي للدين بأنه "مجموع مركب من معارف المبدأ والمعاد ومن قوانين اجتماعية من العبادات والمعاملات مأخوذة من طريق الوحي والنبوة" (الصفحة 16).

وفي معرض بحثه يعتبر سماحته "أن الدين هو مصدر الواجبات العملية، والأفكار النظرية التي تشير إلى الواقع"، حيث بين الدين والواقع علاقة جدلية.

بكلمات أخرى، الله تعالى خلق الإنسان حباً ورحمةً له، إذ يقول تعالى في سورة هود: "وما كان ربك ليهلك القرى بظلمٍ وأهلها مصلحون، ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدةً ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم"².

² سورة هود، الآيات 117 إلى 119.

ولما كان الله تعالى رحمن، رحيم، حكيم، عالم، عادل.. فإنه أجلّ من أن يخلق الإنسان لهدفٍ مطلوب منه أن يصل إليه، ولا يحدّد له الطريق المطلوب منه أن يسلكها أو يحدّد له سُبُل سلوك هذه الطريق. وهذا ما يسمى عند العرفاء والفلاسفة بمصطلحات من قبيل: المرسل، الرسول، الرسالة، أو غيرها.

إذًا، هذا التوق والشوق للإنسان لبلوغ الكمال، هو شوق فطري، لهذا قدّم الدين الإسلامي نفسه على أنه دين الفطرة {فأتم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون} ³.

ومعنى فطرية الدين أن نزعة التدين أصيلة في الإنسان ونابعة من داخله. وبحسب سماحة الشيخ حسن بدران أيضًا: "الفطرة الإنسانية تطلب في أعماقها، والإنسان يميل بطبيعته نحو قوة أعلى يركن إليها ويؤمن بها. وغاية الدين هو أن يرسم للإنسانية طريقها السويّ بما يشبع هذه النزعة الفطرية فيها، ويؤصلها بتحويلها من حالة اللاوعي إلى الوعي" (ص17).

أما في المسيحية، وبحسب الدكتور جورج صبرا: فالدين المسيحي هو لقاء واستجابة. لقاء يحدث بمبادرة من الله، واستجابة هي ردّ بشري على اللقاء مع الله، تخضع (الاستجابة) لمحدودية الإنسان المخلوق، وهي عرضة لعمل الإنسان الخاطئ.

لكن، بحسب د. صبرا: "القول بأن الدين في المفهوم المسيحي يعمّ ويشمل كل ناحية من نواحي الحياة البشرية لا يعني أن الدين يقدم نظامًا كاملاً ومتكاملاً لكل نواحي الحياة بتفاصيلها، وأنه يحتوي على أجوبة جاهزة ومعلّبة عن كل الأسئلة المجتمعة أكانت أخلاقية، أم سياسية، أم اجتماعية، أم اقتصادية، أم ثقافية... العلاقة الخلاصية مع الله هي أساسية ومعيارية لهوية الإنسان، لكن هذا لا يعني أنه يمكن اختزال الدين المسيحي إلى نظام أخلاقي أو مجموعة تعليمات حياتية تفصيلية وشاملة". (ص26) ويفهم من هذا الكلام، أنه لا شريعة واضحة مطلوب من الإنسان المسيحي أن يسلكها من أجل خلاصه. وهذا من أهم موارد الاختلاف بين الإسلام والمسيحية.

تستوقفني هنا الآيتان 51 و52 من سورة "المؤمنون"، إذ يقول تعالى "يا أيها الرُّسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إني بما تعملون عليم. وإن هذه أمتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاتقون".

الجميل هو قراءة هذه الآيات الكريمة مع ملاحظة سياقها، حيث يبدأ تعالى بالحديث عن فلاح المؤمنين {قد أفلح المؤمنون}، ثم يعرض تعالى لصفاتهم التي أوصلتهم إلى مقام الفلاح. بعد ذلك يعرض تعالى أدلة حول عظمة خلق

³ سورة الروم، الآية 30.

الإنسان والكون، ليتحدث عن إرساله النبي نوح عليه السلام ومعاناته مع قومه، ثم إرساله موسى (ع) ومعاناته أيضًا، ثم يقول تعالى "وجعلنا ابن مريم وأمه آيةً وآييناهما إلى ربوة ذات قرارٍ ومعين"، "يا أيُّها الرسل...".

أظن أن قراءة هذه الآيات والتمعن في معناها وفي المنطق القرآني الحاكم عليها، كفيل بتسليط الضوء على هذا الخلاف الظاهر بين المسيحية والإسلام.

الدين ونظام القيم

لعل أبرز مشكلة يعاني منها مجتمعنا المعاصر، في دوائره المختلفة، هي أزمة تدني المستوى الأخلاقي عند نسبة كبيرة من الناس. وهذا الأمر يلاحظه المرء منّا في مختلف دوائر الحياة، في الشارع والمدرسة ومكان العمل والحج... وهو يحتاج لوقفه كبيرة، لأنه إذا كانت حقيقة الأمر كما قال الشاعر أحمد شوقي:

"إنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا".

فما يحصل في مجتمعاتنا مؤثر خطر. ونحن إذا ما طرحنا على أنفسنا سؤال، لماذا هذا التراجع في المستوى الأخلاقي، وفي مستوى حمل القيم بين الناس، نحن أبناء من بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، ونحن أبناء من غلب على رسالته الطابع الأخلاقي، وغلب على تعاليمه لتلامذته وأتباعه وللبشرية طابع الدعوة لحمل القيم الأخلاقية العالية من محبة وتسامح وصدق وغيرها؟ إذا طرحنا على أنفسنا سؤال لماذا هذا التراجع؟

لعلّ الجواب الأول سيكون لابتعادنا عن دين محمد (ص) وابتعادنا عن دين عيسى المسيح (ع). فإنسان هذا العصر لم يجد الهدف الذي خُلق من أجله: تحقيق كماله أو خلاصه.

وبالتالي هو لا يبحث عن سُبُل الوصول إلى هذا الهدف. والأخطر، انه في مساحة الفراغ هذه، جاء الكثير من المنظرين وطرحوا منظومات أخلاقية بديلة تدغدغ أنانية الإنسان، وتستغل توقه إلى الكمال، لتقول له:

. كمالك في إشباع حاجات ورغبات جسديك وليس في سَمُوروحك.

. كمالك في امتلاك القوة بكل مظاهرها: المال . العلم . السلاح..

. لا توجد حقائق أزلية أو أبدية، لا توجد قيم ثابتة، ولماذا لا يضع كل مجتمع قيمه!

من هؤلاء Niztche و Michell Foucault وغيرهم.

بالتالي، مع ابتعاد الدين عن ساحات الحياة وانتشار منطق فصل الدين عن الدولة، ومع ظهور الفلسفات والنظريات المنحرفة الداعية لبناء منظومات أخلاقية من صنع البشر، دخلنا في دوامة ضعف المستوى الأخلاقي في مجتمعاتنا، وبدلاً من تعزيزها، فإننا نسير القهقرة.

الحل: بالعودة إلى الدين. معرفة الهدف الحقيقي من وجود الإنسان والسير باتجاه ذلك الهدف وفق القانون، وقانون السير الذي وضعه من خلق الإنسان ليرحمه.

الحل: بمعرفة الهدف واتباع الشريعة، وبرأيي، إن أفضل منهج يعتمد لبناء الإنسان هو ذلك الذي تبناه العرفاء من علماء الأخلاق، والذي لخصه الخواجة نصير الدين الطوسي قدس سره (الصفحة 99) "لا ريب أن من نظر في وجوده وأحواله... علم أنه محتاج إلى غيره، وكل محتاج إلى غيره فهو ناقص في نفسه، وإذا علم نقصان نفسه انبعث في باطنه شوق إلى كماله بدعوة إلى طلبه، فيحتاج في ذلك الطلب إلى حركة يسميها أهل الطريقة السلوك": هذا المنهج الذي شرحه فضيلة الشيخ شفيق جرادي في بحثه.

بعبارة أخرى: أنظر إلى نفسي فأجدها فقيرة ومحتاجة؛ مشتاقة إلى كمالها؛ أبحث لها عن الكمال فأجده عند واهب الكمالات للخلائق؛ فأسلك طريق رسمها لي (الكريم، الهادي) لأبلغ تلك الكمالات وهكذا أكون ممن هم مصداق "تخلّقوا بأخلاق الله".

في السياق نفسه، لعلّ الرؤية التي قدّمها الأب إدغار الهيبي، بحسب نظرة الكنيسة الكاثوليكية، عند بحثه لموضوع الدين ونظام القيم، هي رؤية قريبة من الرؤية الإسلامية. فهو يرى أن الأفعال البشرية تسير بفاعلها إلى رؤية الرب مصدر كل وسعادة مبدأ كل خير (الصفحة 113) (أو الابتعاد عن هذه الرؤية إذا كانت أفعال الإنسان سيئة) وهو يعرض العناصر الأساسية من معرفة الله وكيفية اندراجها في تأسيس اللاهوت الخلقية، وهي:

1. الله الخالق، سابق على كل شيء.

2. الله صاحب المبادرة للعهد، لم يتوان عن عهده الأساسي = دعوة الإنسان إلى المشاركة في الحياة الإلهية إلا أن ذلك استوجب تدبيراً خلاصياً.

3. الله مبدأ العلاقة وغايتها أي الحياة كغاية للشريعة.

"انظر! إني قد جعلت اليوم أمامك الحياة والخير، والموت والشر. إذا سمعت إلى وصايا الرب إلهك التي أنا أمرك بها اليوم، محبباً الرب إلهك وسائرًا في سبيله وحافظاً وصايا وفرائضه وأحكامه، تحيا وتكثر ويباركك الرب إلهك في الأرض التي

أنت داخل إليها لترثها فاحتر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك، محبًا الرب إلهك وسامعًا لصوته متعلقًا به" (تص 15.30 . 20).

التحديات التي تواجهها عودة الدين إلى الحياة:

يمكن تعداد هذه التحديات كالتالي:

أولاً: بحسب ما ورد في نص د. غابي هاشم:

1 . التحدي الأكبر الذي يتعرض له الدين، لا سيما في المجتمع المعلمن، هو عدم حصر الإيمان في إطار الأديان أو التدين (الصفحة 7). (أي هناك أناس يؤمنون من دون اتباع دين معيّن وهذا يأخذنا إلى أصحاب نظريات عدم وجود حقائق ثابتة وأبدية).

2 . ملاءمة الخطاب الديني واللاهوتي للعقل البشري والإنسان المعاصر ليكون مفهومًا، أي قادرًا على ملاقاته منطوق أبناء هذا العصر وهمومهم ومخاوفهم والإجابة عن تساؤلاتهم إجابة رصينة (الصفحة 73).

3 . التحدي الثالث يقوم على رهان التنشئة وتبليغ هذه المكتسبات، لتدرك الشرائح المختلفة ولا تبقى محصورة بالأبحاث الأكاديمية والمسعفي النخبوية (الصفحة 73).

4 . تحدي حوار الحياة أي التفاعل بين الأديان الإبراهيمية (الصفحة 74).

ثانيًا: برأيي، أهم التحديات المفروضة على نشر الدين اليوم هي:

1 . الخطاب ولغة الخطاب، سواء لناحية ابتعادها عن روح العصر، أو لناحية اعتماد لغة النخب من فلاسفة وعلماء ومنظرين... إذ:

أ . نحن بحاجة لأن نعرّف الناس على الدين، لا سيما الأجيال الناشئة، بدينهم، بقيمهم، عبر اعتماد كثير من الوسائل التي اعتمدها الكفر للدخول إلى أبنائنا: التكنولوجيا، الفن، الأساليب التربوية الحديثة، الإعلام المتطور والهادف...

ب . نحن بحاجة للنزول إلى مستوى عامة الناس في خطابنا. للاقتداء بالأنبياء والصالحين الذين عاشوا مع عامة الناس وخاطبواهم بلغتهم، "إنّا معشر الأنبياء بعثنا لنكلم الناس على قدر عقولهم".

ج . تسهيل الأمور على الناس، إن الدين يسر ولم يكن للحظة سبباً للعسر. كما أن مساحات الحلال أكبر بكثير من مساحات الحرام. ففي حديث المعراج "إن العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها طلب الحلال".

د . نحن بحاجة لأن نمثل القدوة للناس بالدين، بالسعي نحو السعادة والحقيقة، بالتخلُّق بالأخلاق الفاضلة.

2 . ظهور البدع وتيارات التكفير والتقتيل في مجتمعاتنا، وهذا يبعد الناس عن الدين بعد أن يشوّه صورته وصورة أتباعه فهذا عائق حقيقي مطلوب فضحه وعزله.

3 . الانفتاح، الاستفادة من تجارب الآخرين حتى لو كانوا كفاراً ومنافقين.

فالانفتاح مطلوب لإطلاق حوار مع الآخرين والاستفادة من تجارب الآخرين تغني تجاربنا سيّما وأننا طلاب حكومة ومعرفة، وقد ورد في الأحاديث الشريفة:

"الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس فيها" رسول الله صَلَّى الله عليه وعلى آله.

"خذ الحكمة أنى كانت، فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجج في صدره حتى تسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن" الإمام علي عليه السلام.

4 . الاستفادة من عثرات، إن لم نقل فشل التجربة الغربية التي اختارت الابتعاد عن الدين أو بأحسن الأحوال عزل الدين في البيوت وعلى مستوى الحياة الشخصية وإبعاده عن إدارة الحياة العامة. فمنذ سنوات يدور جدل في الغرب حول هذا الموضوع، في الجامعات وعلى مستوى الأبحاث والدراسات الفكرية. ولعل أبرز من كتب في هذا المجال هو الكاتب الكندي تشارلز تيلور الذي اعتبر أن إبعاد الدين عن الحياة العامة واليومية أدى إلى ما أسماه The Malaise of Modernity أو آلام الحداثة، ودعا إلى إعادة الدين إلى مسرح الحياة اليومية، مستعملاً عبارة "كثلكة العولمة A Catholic Modernity".

الخاتمة

إن ما قدمته هو عبارة عن استفادة متواضعة من الجهود التي سبق وقدمها السادة المحاضرون والباحثون، أضفت إليها شيء من تجربتي وملاحظاتي وآمالي.

أسأل الله التوفيق للجميع لما فيه خير مجتمعنا ولما فيه اعزاز كلمة الله تعالى على الأرض.